



Philosophy of Pain and Bodily Identity "A Phenomenological and Analytical Reading"

Saham Abu Khader

Department of Philosophy and Islamic Studies – Libyan Academy – Janzour .Libya

Email: Sehamalmunir62@gmail.com

<https://orcid.org/0009-0000-3183-5885>

Received:05/04./2026. / Accepted:30/04/2026. Available online:21/06/2026.DOI:10.26629/UZRHJ .2026.02.

ABSTRACT

Expérience That Transcendes its Meduction to a mere Physical Sensation, Proposing it Instead as a key entry point for understanding bodily identity. The study is grounded in the Assumption that pain cannot be fully Explained in Biological or Neurological Terms; Rather, It Constitutes a Phenomenological Experience Through Which the relationship between the Self and the body is Disclosed, Revealing Fundamental aspects of human existence moments of Vulnerability and Suffering.

Employing a Phenomenological approach, the paper Analyzes pain as it is Lived from within Drawing on the philosophies of Edmund Husserl and Maurice Merleau- ponty, Who Conceive the body as a lived body Rather Than a mere Physical Object. From This Perspective, pain Reconfigures the Subject's Awareness of the body Transforming it from a transparent medium of Being- in-the-world Into a dense focus of attention, Thereby Disrupting the Habitual relation between the Self and the world.

Keywords: Philosophy of Pain, Bodily Identity, Phenomenology, Lived Body, Analytic Philosophy.



فلسفة الألم والهوية الجسدية "قراءة ظاهراتية وتحليلية"

سهام أبوخضير

قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية – الأكاديمية الليبية – جنزور. ليبيا

إيميل: Sehamalmunir62@gmail.com

أوركيد: <https://orcid.org/0009-0000-3183-5885>

تاريخ النشر: 2026/06/21

تاريخ القبول: 2026/04/30

تاريخ الاستلام: 2026./04./05

ملخص البحث

تتناول هذه الورقة الفلسفية إشكالية الألم بوصفه تجربة وجودية مركبة تتجاوز كونه إحساساً فيزيائياً عابراً، لتغدو مدخلاً لفهم الهوية الجسدية للإنسان، تنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن الألم لا يختزل في كونه حدثاً بيولوجياً أو استجابة عصبية، بل يشكل تجربة ظاهراتية تكشف عن علاقة الذات بجسدها، وعن الكيفية التي يتجلى بها الوجود الإنساني في لحظات الانكسار والمعاناة.

تعتمد الورقة على المنهج الظاهراتي لتحليل تجربة الألم كما تُعاش من الداخل، مستندة إلى تصورات فلاسفة مثل موريس ميرلو-بونتي، وهوسرل، حيث يُنظر إلى الجسد بوصفه "جسداً معيشاً" لا مجرد موضوع مادي، فالألم، من هذا المنظور، يعيد تشكيل وعي الإنسان بجسده، ويحول الجسد من وسيط شفاف للوجود في العالم إلى مركز كثيف للحضور والانتباه، مما يؤدي إلى تصدع العلاقة الاعتيادية بين الذات والعالم.

كما توظف الورقة التحليل الفلسفي المفاهيمي لبيان العلاقة بين الألم والهوية الجسدية، مبرزة كيف يساهم الألم في إعادة بناء الإحساس بالذات، وفي الكشف عن حدود السيطرة العقلية على الجسد، فالألم يفضح هشاشة الهوية، ويظهر أن الذات ليست كياناً مستقلاً عن الجسد، بل تشكل من خلاله وداخله، خصوصاً في حالات المرض والمعاناة المزمنة.

وتخلص الورقة إلى أن الألم يمثل لحظة كاشفة للهوية الجسدية، إذ يفرض على الإنسان مواجهة جسده بوصفه شرطاً للوجود لا مجرد أداة. ومن ثم، فإن فهم الألم فلسفياً يفتح أفقاً أعمق لفهم الإنسان، لا باعتباره عقلاً مجرداً، بل ككائن متجسد تتداخل فيه التجربة الجسدية والوعي والهوية في بنية واحدة لا يمكن فصل عناصرها.

كلمات مفتاحية: فلسفة الألم، الهوية الجسدية، الظاهراتية، الجسد المعيش، التحليلية.

المقدمة

يُعد الألم من أكثر التجارب الإنسانية كثافة وتعقيداً، إذ يتجاوز كونه استجابة فيزيولوجية لمنبه جسدي ليغدو ظاهرة وجودية تكشف عن علاقة الذات بذاتها وبالعالم، فحين يتألم الإنسان، لا يُعد ذلك مجرد إحساس عابر، بل يواجه جسده بوصفه مركزاً للتجربة والوعي والمعنى، من هنا؛ يطرح الألم إشكالاً فلسفياً عميقاً يتصل بفهم الجسد والهوية، ويستدعي مقارنة تتجاوز التفسير الطبي أو النفسي الضيق نحو أفق فلسفي أوسع.

يُمكن جوهر الوجود الإنساني في التعرّض المستمر للألم، لا بالضرورة كواقع مُلح، بل كاحتمالية قائمة تخيم على الوجود. ومع أن تجلياته وشدته تتفاوت بين فردٍ وآخر، إلا أن حقيقة التعرض له تبقى سمة جامعة تُعرّف ماهيتنا، فلا تقتصر علاقتنا بالألم على تجربتنا الفردية فقط، فالمجتمع والتاريخ يزودنا بمفردات ثقافية ومقاييس اجتماعية تُؤطر فهمنا له وتحدد دلالاته، وأما على الصعيد الجسدي، فيُمثل الألم تجربة حسّية مباشرة ندركها من دون مؤاربة؛ فطبيعة أجسادنا وحواسنا تجعلنا عُرضةً له، وكما نتيحُ لنا إدراك نقيضه: اللذة والراحة.

لقد ظلّ الجسد في تاريخ الفلسفة موضوعاً ملتبساً بين كونه موضوعاً مادياً خاضعاً لقوانين الطبيعة، وكونه شرطاً أساسياً لتجربة الذات ووعيتها، غير أن الفلسفة الظاهراتية، ولا سيما في أعمال "موريس ميرلو-بونتي" أعادت الاعتبار للجسد بوصفه "جسداً مُعاشاً"، أي باعتباره الطريقة التي يحضر بها الإنسان في العالم ويتفاعل معه، فيبرز الألم كخبره كاشفة تجعل الجسد حاضراً بقوة في الوعي، وتحوله من خلفيّة صامتة للتجربة إلى بؤرة مركزية للهوية.

يبلغ الألم بأوضح صورة حينما يُصيب أجسادنا، وهو في جوهره تجربة سلبية، تخيل أن فأساً تخطي هدفها، فتصيب ساقي بدلاً من قطعة الخشب، وعندئذ سأنقضُ رُعباً، وتتغير ملامحي بينما أشاهد الدم ينزف أمامي، وبالطبع ستتعالى صرخاتي المدوية معلنةً أن الألم دافع داخلي؛ استجابة طبيعية مُحيرة للكائن الحي.

انطلاقاً من ذلك، تسعى هذه الدراسة إلى مقارنة العلاقة بين الألم والهوية الجسدية من منظور ظاهراتي وتحليلي، فالمنهج الظاهراتي يتيح وصف تجربة الألم كما تُعاش من الداخل، بوصفها تجربة وعي متجسدة تكشف حدود الجسد وهشاشته، وقدرته على إنتاج المعنى أما المنهج التحليلي، فيهدف إلى تفكيك المفاهيم الأساسية المرتبطة بالبحث، مثل: الألم، الجسد، الهوية الجسدية، وضبط دلالاتها الفلسفية مما يضمن الوضوح والصرامة المفهومية.

وتنتقل الدراسة من فرضية مفادها أن الألم لا يمثل مجرد عارض جسدي، بل يُسهم في تشكيل الهوية الجسدية للذات، إذ يعيد تنظيم علاقة الإنسان بجسده ويمنحه وعياً خاصاً بكونه كائناً متجسداً. وعليه تحاول هذه الورقة الإجابة عن السؤال المركزي الآتي:

كيف يُسهم الألم، بوصفه تجربة جسدية معيشة في بناء الهوية الجسدية للذات الإنسانية؟

وذلك من خلال الجمع بين الوصف الظاهراتي والتحليل المفهومي، بما يسمح لفهم أكثر عمقاً لتعقيد التجربة الإنسانية للألم ودلالاتها الفلسفية.

مشكلة الدراسة:

رغم الحضور المركزي لتجربة الألم في الوجود الإنساني، لا يزال يُنظر إليها في كثير من المقاربات العلمية والطبية بوصفها ظاهرة فيزيولوجية أو عصبية قابلة للقياس والتشخيص، في حين يُغفل بعدها الوجودي والظاهراتي بوصفها تجربة معيشة تكشف عن علاقة الذات بجسدها، ويؤدي هذا الاختزال إلى قصور في فهم الهوية الجسدية، إذ يُفصل الجسد عن الوعي ويتعامل معه كموضوع خارجي أو أداة وظيفية، لا كشرط أساسي لتكوين الذات وتجربتها.

وتنبثق مشكلة هذه الدراسة من هذا التوتر النظري بين التفسيرات الاختزالية للألم والمقاربات الفلسفية التي تنظر إليه بوصفه تجربة كاشفة لهشاشة الذات وحدود سيادتها على الجسد فكيف يمكن للألم بوصفه تجربة ظاهراتية أن يعيد تشكيل الوعي بالجسد ويكشف عن بنية الهوية الجسدية؟ وإلى أي مدى يُسهم تحليل الألم في تجاوز الثنائية التقليدية بين العقل والجسد، وفي تقديم فهم أعمق للذات الإنسانية ككائن متجسد؟ وعليه، تتمثل مشكلة الدراسة في غياب تصور فلسفي متكامل يربط بين تجربة الألم والهوية الجسدية ضمن إطار ظاهراتي وتحليلي، قادر على استيعاب البعد المعيش للألم وتبيان دوره في إعادة تعريف العلاقة بين الجسد والذات والهوية.

أهمية البحث:

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يُسهم في تعميق النقاش الفلسفي حول فلسفة الجسد والمعاناة، من خلال تقديم قراءة ظاهراتية للألم تتجاوز الفهم الطبي التقليدي، كما تكمن أهميته في إبراز دور الألم في بناء الهوية الجسدية، وهو جانب لم يحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات الفلسفية المعاصرة؛ إضافة إلى ذلك، يفتح البحث آفاقاً معرفية جديدة لفهم التجربة الإنسانية من منظور جسدي وجودي.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحليل تجربة الألم بوصفها خبرة جسدية وجودية تُسهم في إعادة تشكيل الهوية الجسدية للذات الإنسانية، كما يسعى إلى إبراز الدور الفلسفي للألم في تحويل الجسد من مجرد وسيط صامت للوعي إلى مجال لانكشاف الذات على ذاتها، ويهدف كذلك إلى توضيح أهمية المنهج الظاهراتي في فهم الألم بعيداً عن المقاربات الاختزالية، والكشف عن العلاقة الجدلية بين المعاناة والهوية الجسدية.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج الظاهراتي التحليلي، بوصفه المنهج الأنسب لدراسة تجربة الألم باعتبارها ظاهرة معاشة تتجلى في الوعي من خلال الجسد، ويقوم هذا المنهج على وصف تجربة الألم كما تُعاش ذاتياً، بعيداً عن التفسيرات الطبية أو الفيزيولوجية، مع تحليل بنيتها القصدية ودلالاتها الوجودية، كما يستند البحث

إلى التحليل المفاهيمي للنصوص الفلسفية المعاصرة، ولا سيما تلك التي تناولت الجسد والمعاناة، وذلك للكشف عن العلاقة بين الألم وتشكل الهوية الجسدية.

مصطلحات البحث:

الألم: هو كيفية نفسية لا يعرف بل يذكر خواصه، ويقابله اللذة، وهو إدراك مكروه ونيل لما هو عند المدرك، والمراد بالإدراك العلم، وبالنيل التحقق، فإن التكيف بالشيء لا يوجب الألم من غير إدراك (التهانوي، د.ت).
الهوية الجسدية: تشير إلى التصورات الذاتية التي يحملها الفرد عن جسده، بما في ذلك الشكل والمظهر، وكيفية تأثير هذه التصورات على كيفية تفاعله مع الآخرين (Schilder, 1935).

الجسد المعيش: هو الجسد كما يُختبر ويُعاش من الداخل بوصفه ذاتاً مُدركة وفاعلة في العالم، لا مجرد موضوع مادي أو بيولوجي، فهو الوسيط الذي من خلاله تدرك العالم وتتخبط فيه، وتكون علاقتنا بالزمان والمكان والآخرين (ميرلوبونتي، 2012).

الظاهراتية: هي منهج وفلسفة تدرس الخبرة الإنسانية كما تُعاش وتُعطى في الوعي مباشرة، دون افتراضات مسبقة أو تفسيرات علمية خارجية، وتركز على تحليل كيفية ظهور الأشياء للوعي، أي على بنية التجربة ذاتها بدل تفسيرها تفسيراً سببياً أو تجريبيّاً (هوسرل، 1913).

الدراسات السابقة

1. دراسة Shaun Gallagher (2005) بعنوان: تحليل الظاهراتية والجسد المعيش.
تهدف هذه الدراسة إلى توضيح تشكيل الخبرة الجسدية في الوعي الإنساني، والكشف عن العلاقة بينه وبين الإدراك والتجربة والالتباس بين الجسد كموضوع مادي والجسد كخبرة معيشة، حيث توصلت هذه الدراسة لنتائج من أهمها: أن الجسد المعيش لا يمكن اختزاله في بعده البيولوجي، بل يمثل بنيه أساسية تشكل الوعي والإدراك.

2. دراسة Thomas (2012) بعنوان: The phenomenology of body memory.
الجسد من منظور فينومينولوجي، حيث هدفت إلى تحليل دور الجسد المعيش في تشكيل الخبرة الإنسانية، مع التركيز على مفهوم "الذاكرة الجسدية"، واعتمدت الدراسة على المنهج الفينومينولوجي التحليلي، مستندة إلى معطيات في الطب النفسي، وقد توصلت إلى أن الاضطرابات النفسية، مثل القلق والاكتئاب، ترتبط بخلل في تجربة الجسد، حيث يفقد الجسد طابعه التلقائي ويصبح موضوعاً للوعي المفرط، مما يؤثر في علاقة الفرد بذاته وبالعالم.

3. دراسة، علام (2020)، بعنوان فينومينولوجيا الجسد الحي .

هدفت هذه الدراسة لمفهوم الجسد من منظور فينومينولوجي إلى إعادة تعريف الإنسان عبر الجسد، كما يُعاش في العالم، حيث توصلت هذه الدراسة إلى تشكيل الجسد المعيش أساساً لإعادة فهم الذات الإنسانية في الفلسفة المعاصرة.

التعليق على الدراسات السابقة وعلاقتها بالدراسة الحالية

أولاً: التعليق على الدراسات السابقة

تظهر الدراسات الفينومينولوجية المعاصرة، كما في أعمال موريس ميرلو-بونتي و Shaun Gallagher و Edmund Husserl اهتماماً متزايداً بمفهوم الجسد بوصفه بنية أساسية في تشكيل الخبرة الإنسانية، وقد اتفقت هذه الدراسات على رفض التصور الاختزالي للجسد كموضوع بيولوجي مستقل، لصالح فهمه كجسد معيش يتحدد من خلال التجربة والإدراك والعالم المعيش، كما ركزت هذه الأدبيات على تحليل العلاقة بين الجسد والوعي بمفهوم "التجسد" باعتباره شرطاً أساسياً لتشكيل المعنى الإنساني. غير أن هذه الأدبيات، رغم عمقها النظري، بقيت في معظمها متركزة حول قضايا الإدراك والوعي الجسدي العام، دون التوسع في تحليل تجربة الألم بوصفه ظاهرة وجودية تؤثر في بنية الهوية الجسدية.

ثانياً: أوجه الشبه بين الدراسات السابقة والدراسة الحالية

تتقاطع الدراسة الحالية، المعنونة بـ "فلسفة الألم والهوية الجسدية: قراءة ظاهرية وتحليلية"، مع الدراسات السابقة في مجموعة من النقاط، أبرزها:

1. مركزية الجسد المعيش: حيث تتفق الدراسات على أن الجسد ليس موضوعاً مادياً وخارجياً، بل هو شرط أساسي لتشكيل الإدراك والوعي والوجود في العالم.
2. المنطق الفينومينولوجي المشترك، حيث تعتمد جميعها على المنهج الفينومينولوجي في تحليل الخبرة الإنسانية كما تُعاش، وليس كما تفسر تفسيراً تجريبياً صرفاً.
3. رفض الثنائية الكلاسيكية: تشترك جميع الدراسات في تجاوز الفصل التقليدي بين العقل والجسد، لصالح تصور تكاملي يعتبر الجسد أساساً للخبرة.
4. الاهتمام بالخبرة الذاتية: تركز هذه الدراسات على تحليل التجربة المعيشة بوصفها مصدراً للمعرفة الفلسفية حول الإنسان.

ثالثاً: أوجه الاختلاف بين الدراسات السابقة والدراسة الحالية

- على الرغم من هذه التقاطعات، تتميز الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في عدة جوانب جوهرية:
- 1- تحول الموضوع من الجسد إلى الألم: بينما انشغلت الدراسات السابقة بالجسد بوصفه بنية إدراكية أو معرفية، تنتقل هذه الدراسة إلى تحليل الألم بوصفه تجربة وجودية داخل الجسد المعيش.
 - 2- إدخال مفهوم الهوية الجسدية: لا تقتصر الدراسة الحالية على تحليل الجسد أو الإدراك، بل تتجاوز ذلك إلى دراسة كيف يعيد الألم تشكيل الهوية الجسدية للفرد، وهو بعد لم يحظ بتفصيل كافٍ في الدراسات السابقة.
 - 3- البعد الوجودي للألم: تتعامل الدراسات السابقة مع الألم ضمناً أو بشكل ثانوي، في حين تضعه هذه الدراسة في مركز التحليل بوصفه تجربة تكشف عن تحولات عميقة في معنى الوجود الإنساني.
 - 4- التكامل بين الفينومينولوجيا وتحليل الهوية: تجمع الدراسة الحالية بين التحليل الفينومينولوجي والتفكير في الهوية الجسدية، بما يوسع الإطار النظري من وصف التجربة إلى تغير آثارها الوجودية.
- إذ تتموضع هذه الدراسة ضمن الأدبيات الفينومينولوجية المعاصرة، إلا أنها تقدم إضافة معرفية تتمثل في نقل التحليل من مستوى "الجسد والإدراك" إلى مستوى "الألم والهوية الجسدية".

أولاً: مفهوم الألم لغة واصطلاحاً:

تعريف الألم لغة:

ألم-ألماً: وجع فهو ألم: "آلمه" إيلاًماً: أوجعه، فهو مؤلم وأليم.

الألم بمعنى الوجع، وجمعها الآم، والأليم أي المجمع والعذاب الأليم بمعنى الذي يبلغ غاية البلوغ الأليمة(مذكور، 1985).

تعريف الألم اصطلاحاً

تعددت التعريفات التي تناولت الألم بتعدد وجهات النظر المتعلقة بتفسير خبرة الألم، فقديمًا كان ينظر إلى الألم من منظور ثنائية الجسم والعقل الديكارتية، وبناءً على هذه النظرة عرف الألم بأنه خبرة حسية تعتمد على درجة التضرر الواقع على النسيج الحي.

ومع تطوّر فهم الألم في الربع الأخير من القرن الماضي، حدث تحول دال في التفكير بشأنه، حيث ساعدت هذه النظريات في اختبار المفاهيم الحسية التقليدية، والتي ظلت مسيطرة على التفكير بشأن الألم منذ اقتراحها بواسطة ديكارت في القرن الخامس عشر، فضلاً عن ذلك فإن عجز المفاهيم التقليدية عن تفسير بعض المظاهر الخاصة بالألم مثل الشعور بالألم أو وجود ألم دون وجود إصابة، كل ذلك أدى إلى ظهور تعريفات جديدة للألم ترتبط بتوجهات مختلفة(الحنفي، 1990)، لذلك فالألم هو كيفية نفسية لا يُعرف بل تُذكر خواصه،

ويقابله اللذة، وهو إدراك المكروه ونيل لما هو عند المدرك "بالكسر" آفة وشر من حيث هو كذلك، والمراد بالإدراك العلم، بالنيل التحقق، فإن التكيف بالشيء لا يوجب الألم من غير إدراك، فلا ألم للجما، وإدراك الشيء من غير النيل لا يؤلم، وقال البعض اللذة أمر عديمي هو زوال الألم، كالأكل فإنه دفع ألم الجوع، والألم حسي وعقلي (صليبا، 1982).

الألم مصدر ألم يألم، كعلم يعلم، وهو مقابل للذة، والألم واللذة هما من الأحوال النفسية الأولية، فلا يعرفان، بل تذكر خواصهما وشروطهما دفعاً للالتباس اللفظي.

فيقول ديكرت: اللذة هي الشعور بالكمال، والألم هو الشعور بالنقص، وهو أقرب إلى التحصيل من قولهم الألم إدراك المنافي من حيث هو منافي، واللذة إدراك الملائم من حيث هو ملائم، لأن الملائم بالجملة أعم من اللذيذ، والألم أخص من المنافي (صادق، 2005).

وبعد طرح هذه التعريفات نجد أن التعريفات الأكثر ملائمة للألم هو التعريف المتمثل على ذكر خواص الألم وأسبابه.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والفلسفي للألم

- مفهوم الألم في الفلسفة

يمثل الألم إحدى أقدم الإشكاليات التي شغلت التفكير الفلسفي، وذلك لما ينطوي عليه من تداخل بين الجسد والنفس، وبين الإحساس والمعنى، وقد تطور فهم الألم تاريخياً من كونه حالة حسية أو انفعالية إلى كونه تجربة وجودية كاشفة عن الذات والهوية، لذلك يمكننا تتبع هذا التحول من الفلسفة إلى أخرى، وقد تعددت مقارباته بتعدد التصورات الفلسفية للإنسان، فمنذ ظهور التفكير الفلسفي، جرى التفكير في الألم ضمن ثنائية اللذة/ الألم قبل أن يعاد الحديث عنه في الفكر الفلسفي الحديث في إطار ثنائية النفس والجسد، ويمكننا تتبع هذا التحول عبر الفلسفات (مظهر، 2019)، فلا يتناول الألم في هذه الدراسة بوصفه ظاهرة طبية أو فسيولوجية، بل باعتباره تجربة فلسفية معيشة تتكشف فيها علاقة الذات بجسدها، فالألم من منظور فلسفي لا يتمثل في مجرد إحساس جسدي، وإنما في طريقة ظهور الجسد للوعي حين يفقد شفافيته ويغدو موضع انتباه وانكشاف (إبراهيم، 1969)، أما في المقاربات التحليلية، فيُنظر إلى الألم بوصفه حالة واعية ذات بعد قصدي؛ أي إنه ليس مجرد منبه عصبي، بل تجربة لها محتوى ومعنى يُعاش من الداخل، فالألم لا يُدرك كموضوع خارجي، بل كخبرة ذاتية لا يمكن فصلها عن الشعور بالذات، وهو ما يطرح إشكالية إمكانية التعبير عنه ونقله للآخرين (أفلاطون، 2008)، وعليه؛ فإن الألم لا يختزل في كونه معطى سلبياً، بل يؤدي دوراً كاشفاً، إذ يُظهر حدود السيطرة العقلية، ويعيد مسائل التصورات التي تفصل بين الذات والجسد، ومن ثم؛ يصبح الألم مدخلاً لفهم الهوية الجسدية بوصفها هوية متجسدة تتكون عبر التجربة والمعاناة، لا عبر الوعي المجرد وحده (ديكرت، 1962).

ولا يقدم أفلاطون نظرية مستقلة في الألم، إلا أن مفهومه يتبلور ضمن تصوره للذة والألم بوصفهما انفعاليين متقابلين مرتبطين بحركة النفس والجسد، حيث يرى أن الألم ينتج عن اختلال التوازن الطبيعي، سواء في الجسد أو النفس، وهو بذلك حالة سلبية تعيق النفس عن بلوغ الخير والانسجام ومن ثم؛ فإن الألم عند أفلاطون ليس تجربة معرفية في ذاته، بل عائقاً أمام المعرفة والفضيلة (ديكارت، د.ت)، ولذا فإن الألم لدى أفلاطون هو حالة انفعالية سلبية، مرتبطة بالجسد وبالأجزاء الدنيا من النفس، وينبغي ضبطه أو تجاوزه لصالح العقل والمعرفة (هوسرل، 2008).

وفي الفلسفة الحديثة يشهد مفهوم الألم تحولاً جذرياً، خاصة مع "رينيه ديكارت"، الذي أعاد تعريف العلاقة بين النفس والجسد في إطار الثنائية المعروفة، فالألم عنده ليس حالة نفسية بالمعنى الجوهري، بل إحساس فيزيولوجي ناتج عن تأثيرات جسدية تنتقل عبر الجهاز العصبي إلى الدماغ، ففي التأملات في الفلسفة بوصفها جوهرًا مفكرًا، لا تتألم في ذاتها، بل تدرك الألم بنتيجة اتحادها العضوي بالجسد، ويؤدي هذا التصور إلى اختزال الألم في كونه آلية إنذارية تهدف إلى الحفاظ على الجسد من التلف، مما يفرغه من أبعاده الوجودية والذاتية، ويكرس الفصل بين التجربة الجسدية والوعي (هوسرل، د.ت).

يتضح مما سبق أن مفهوم الألم انتقل من كونه اضطراباً يجب تجاوزه لصالح العقل عند أفلاطون، إلى كونه إحساساً طبيعياً ذا وظيفة أخلاقية عند أرسطو، ثم كونه آلية جسدية منفصلة عن ماهية الذات في الفلسفة الديكارتية، وسيشكل هذا التحول التاريخي خلفية نقدية أساسية للفلسفة الظاهرية، التي ستحاول لاحقاً استعادة الألم بوصفه تجربة معاشه تكشف عن علاقة الذات بهويتها الجسدية (ميرلو بونتي، 2010).

وفي الفلسفة المعاصرة، أصبح الألم يُنظر إليه بوصفه خبرة وجودية كاشفة، لا مجرد حالة سلبية، فهو يضع الذات أمام حدودها ويجعل الجسد حاضراً بقوة في الوعي بعد أن كان شفافاً في الحياة اليومية، حيث يرى بعض الفلاسفة أن الألم قد يؤدي وظيفة معرفية، فيوقظ الوعي بالجسد ويعيد من جديد تشكيل العلاقة بين الذات والجسد.

ومن هذا المنطلق، أن الألم يشكل لحظة انكشاف وجودي، حيث تُجبر الإنسان على مساءلة معنى الجسد والذات والمعاناة، ويتحول من تجربة بيولوجية إلى مسألة فلسفية تتصل بالهوية والكرامة والمعنى (إيفيناس، د.ت).

المبحث الثاني: الألم في الفلسفة الظاهرية

تمثل الفلسفة الظاهرية منعطفًا حاسمًا في فهم الألم، إذ تنتقل به من كونه مجرد إحساس فيزيولوجي أو حالة نفسية، إلى كونه تجربة معاشة تكشف عن علاقة الذات بجسدها وبالعالم، فخلافاً للتصورات الكلاسيكية والديكارتية التي عالجت الألم، في إطار ثنائيات مفهومية "للذة/الألم، النفس، الجسد"، تسعى الظاهرية إلى وصف الألم كما يُعاش، أي كما يظهر للوعي في حضوره المباشر (مراد، 1998).

يضع "إدموند هوسرل" الأساس المنهجي لهذا التحول من خلال مشروعه الظاهراتي القائم على العودة إلى الأشياء ذاتها، أي إلى الخبرة كما تعطي في الوعي قبل أي تفسير علمي أو ميتافيزيقي، وعلى الرغم من أن هوسرل لم يخصص للألم دراسة مستقلة، فإن تحليله لبنية الوعي والجسد يفتح آفاقاً جديداً لفهمه، ففي أفكار من أجل الظاهراتية خالصة، يميز هوسرل بين الجسد بوصفه موضوعاً مادياً، والجسد بوصفه جسداً حياً فيزيائياً محض، بل ككيفية ظهور خاصة تمس الجسد المعيش بوصفه مركز الإحساس والانفعال، فالألم لا يدرك من الخارج، بل يعاش من الداخل، ويعرض على الوعي فرضاً، مما يمنحه طابعاً قصدياً خاصاً يختلف عن الإدراك الحسي العادي (الديوني، 2023).

غير أن التحليل الظاهراتي للألم يبلغ ذروته مع موريس ميرلو - بونتي الذي يجعل من الجسد محورياً لفهم الوجود الإنساني، ففي كتابه "فينومينولوجيا الإدراك"، يرفض ميرلو اختزال الجسد إلى موضوع فيزيائي أو آلة بيولوجية، ومن هذا المنطلق، يفهم الألم بوصفه حدثاً يطال الجسد المعاش، ويعيد تشكيل علاقة الذات بعالمها، فالألم لا يصيب الجسد فحسب، بل يغير طريقة حضور العالم للذات، إذ يفقد العالم ألفته، ويتحول الجسد من وسيلة للتوجه نحو العالم إلى عائق يفرض حضوره القسري (عطية، 2006).

ويؤكد ميرلو - بونتي أن الألم تميز بكونه تجربة لا يمكن للذات أن تتخذ منها مسافة تأملية محايدة، فهو يقم نفسه في الوعي ويحتله، مما يكشف عن هشاشة السيطرة التي تتوهمها الذات على جسدها، ومن هنا لا يكون الألم مجرد عرض عرضي، بل تجربة كاشفة عن الطابع المتجسد للذات، وعن كونه الهوية الإنسانية ليست وعياً خالصاً، بل تشكلاً مستمراً داخل الجسد (لوبروتون، د.ت).

كما يتميز في التحليل الظاهراتي للألم بُعد الزمن؛ إذ لا يُعاش الألم كنقطة آنية، بل كتجربة ممتدة تغير الإحساس بالزمان، فيبدو الحاضر مثقلاً، والمستقبل مهدداً، والماضي مستعداً بوصفه زمناً بلا ألم، ويكشف هذا البعد الزمني عن أن الألم ليس واقعة حسية منعزلة، بل بنية خيرية شاملة تعيد تنظيم الوعي بذاته وبما لمسه (بن سباع، د.ت)، وبهذا المعنى، تمثل الظاهراتية قطيعة مع التصورات الاختزالية للألم، سواء الأخلاقية أو الميكانيكية، إذ تعيده إلى مستواه الأصلي بوصفه تجربة وجودية معاشة، فالألم، في أفق الفلسفة الظاهراتية، ليس ما يحدث للجسد فقط، بل ما تعيشه الذات في جسدها، وهو بذلك لحظة مفصلية في تشكيل الهوية الجسدية.

يظهر هذا العرض أن مفهوم الألم في الفلسفة قد انتقل من كونه إحساساً طبيعياً أو معياراً أخلاقياً، إلى كونه تجربة وجودية معاشة تتجاوز التفسير، وهذا التحول يُمهّد للانتقال إلى المقاربة الظاهراتية، التي ستعامل مع الألم بوصفه تجربة قصدية تُعاش داخل الجسد المعيش.

- الألم بين الإحساس والمعنى

يُعد الألم ظاهرة مركبة تتجاوز كونه مجرد إحساس فيزيولوجي ناتج عن منبه عصبي، ليغدو تجربة ذات دلالة ومعنى داخل الوعي الإنساني، فالألم بخلاف باقي الإحساسات الجسدية، لا يدرك بوصفه حدثاً محايداً، بل

يُعاش دائماً بوصفه معاناةً ذاتيةً تمس كيان الإنسان وتكشف علاقته بجسده وبذاته، ومن هنا، يطرح الألم إشكالية فلسفية مزدوجة: هل هو مجرد إحساس جسدي وقابل للقياس، أم تجربة ذات معنى تشكل داخل الوعي والسياق الوجودي للذات؟.

من الناحية الحسية، يفهم الألم بوصفه استجابة جسدية لمثير خارجي أو داخلي، تنتقل عبر الجهاز العصبي إلى الدماغ غير أن هذا التفسير، على الرغم من ضرورته العلمية، يظل قاصراً عن الإحاطة بتجربة الألم كما تعاش، فالإحساس وحده لا يفسر دلالاته النفسية والوجودية، هذا يبرز البُعد الفلسفي للألم، الذي يرى فيه تجربة لا تتفصل عن الوعي والتأويل والمعنى (عبدالرحمن، د.ت)، فالألم هنا لا يمكن اختزاله في كونه إحساساً سلبياً يقابل اللذة، بل هو حالة شعورية ذات عمق إنساني، تتداخل فيها الجوانب الجسدية والنفسية والعقلية، ويكتسب الإنسان وعياً خاصاً بذاته ويحدد جسده، فالألم بهذا المعنى لا يُعاش فقط في الجسد، بل يفسر ويعاش في الوعي، حيث يتحول الإحساس إلى تجربة ذات معنى، ومن هذا المنظور، يصبح الألم تجربة مزدوجة البنية:

- من جهة أولى، هو إحساس جسدي مباشر، لا يمكن إنكاره أو تجاوزه.
- ومن جهة ثانية، هو تجربة ذات معنى، تشكل داخل الوعي، ويعاد صياغتها عبر اللغة والذاكرة والتجربة السابقة.

فهذه الازدواجية هي ما يمنح الألم فجاجته الفلسفية، إذ يكشف في آن واحد عن هشاشة الجسد وقدرة الوعي على إضفاء المعنى على المعاناة، مما يجعل الألم لحظة انكشاف للذات أمام نفسها (بن عبدالعالي، 2007). وعليه؛ فإن فهم الألم بوصفه إحساساً فقط يؤدي إلى اختزاله في بعده البيولوجي، بينما فهمه بوصفه معنى فقط يغفل جذوره الجسدية، أما المقاربة الفلسفية فتسعى إلى الإمساك بالألم في توتره القائم بين الإحساس والمعنى، بوصفه تجربة معيشة تُجسد العلاقة المعقدة بين الجسد والوعي، وتمهّد لفهم أعمق لدور الألم في تشكيل الهوية الجسدية للإنسان (موسى، 2006)، لذلك فإن البرامج التي تركز على الهوية غالباً ما يتم الترحيب بها من حيث المبدأ، لكنها تقابل بالرفض أثناء التنفيذ (Abdulghani and Others.2025).

المبحث الثالث: الألم والهوية الجسدية:

- مفهوم الهوية الجسدية:

تعتبر الهوية الجسدية من المفاهيم الفلسفية الحديثة التي ظهرت في سياق نقد التصورات التي تفصل بين الذات والجسد، أو تختزل الجسد بكونه موضوع مادي يخضع للقياس، لذلك فإن الهوية الجسدية لا تشير إلى الجسد بوصفه كياناً بيولوجياً فحسب، وإنما تعبر عن الطريقة التي تعيش بها الذات جسدها وتُدركه وتبني من خلاله علاقتها بالعالم وبالأخرين، ومن ثم فإن الجسد لا يفهم هنا كملكية للذات، بل كشرط إمكان وجودها وهويتها (التريكي، د.ت).

ويميز الفكر الفلسفي المعاصر بين الجسد بوصفه موضوعاً خارجياً يمكن وصفه علمياً وبين الجسد بوصفه جسداً معيشاً، أي ذلك الجسد الذي نعيش من خلاله ونحس به قبل أن نفكر فيه (Ricoeur, 1992)، لذلك فلا تفهم الهوية الجسدية بوصفها معطى ثابتاً أو جوهرًا مغلقاً، بل بوصفها عملية دينامية تتشكل عبر التجربة والذاكرة والانفعالات والعلاقات الاجتماعية، فالجسد يحتمل آثار الخبرات التي مرت به، سواء كانت خبرات لذة أو ألم أو مرض، وهو ما يجعل الهوية الجسدية قابلة للتحويل والتغير، وفي هذا المعنى، يشير "بول ريكور" في تحليله للهوية، إلى أن الهوية ليست تطابقاً ثابتاً، بل بناءً سردياً يتكون عبر الزمن، ويمكن إسقاط هذا التحليل على الجسد بوصفه حاملاً لهذه السردية المعيشية (Husser, 1913).

وعليه؛ يمكن القول أن مفهوم الهوية الجسدية يقوم على ركائز فلسفية أساسية، ومن هذه الركائز:

1. الجسد بوصفه جسداً معيشاً لا مجرد موضوع مادي.
 2. الهوية بوصفها بناءً دينامياً يتشكل عبر التجربة.
 3. التجربة الجسدية، بما تحمله من ألم أو لذة، كعنصر مركزي في تشكل الهوية.
- إذ يمهّد هذا الفهم للهوية الجسدية للانتقال إلى تحليل دور الألم بوصفه تجربة جسدية تعيد تشكيل علاقة الذات بجسدها، وتكشف هشاشة وحدوده، وهو ما يجعل الألم عنصراً فلسفياً حاسماً في إعادة بناء الهوية الجسدية للإنسان (Levinas, 1992).

- من التجربة المعاشة إلى تشكل الذات:

يُعد الألم من أكثر التجارب الإنسانية قدرة على كشف الطابع الجسدي للهوية، إذ يضع الذات في مواجهة مباشرة مع جسدها، لا بوصفه موضوعاً خارجياً، بل بوصفه مجال وجودها الأساسي، فحينما يتعرض الجسد للألم، لا يكون ذلك مجرد حدث عرضي يجيب أحد أعضائه، بل تجربة شاملة تعيد تنظيم علاقة الذات بذاتها وبالعالم، وتظهر أن الهوية الإنسانية ليست معطى ثابتاً، بل تشكلاً متحولاً داخل الجسد (Merleau-ponty, 2012)، وفي الأفق الظاهراتي، لا تفهم الهوية الجسدية، باعتبارها تطابقاً بين الذات وجسدها، ولا باعتبار الجسد ملكية تمتلكها الذات، بل بوصفها علاقة معيشة تقوم على التداخل والانكشاف المستمر، ويبرز الألم بوصفه لحظة قصوى في هذا الانكشاف، إذ يعطل الجسد بوصفه أداة صامتة للتوجه في العالم، ويجعله حاضراً حضوراً قسرياً في الوعي، ففي الألم يفقد الجسد طابعه الشفاف، ويتحول إلى مركز ثقل وجودي يفرض حدوده على الذات، مما يؤدي إلى تصدع الإحساس بالسيطرة والاستمرارية (Levinas, 1992)، ويكشف الألم من هذا المنظور، عن هشاشة الهوية الجسدية، إذ يضع الذات أمام الجسد لا يستجيب لإرادتها ولا يطيع مشاريعها، بل بفرض منطقته الخاص وبذلك لا يعود الجسد هو ما "أكونه" بشكل بديهي، بل ما أتعرف إليه من خلال الانكسار والمعاناة، لهذا أشار ميرلو-بونتي إلى أن الجسد لا يدرك في لحظات الأداء السلس، بل ينكشف في لحظات التعطل، حيث يصبح الألم تجربة تعيد للذات وعيها المتجسد بذاتها (Scarry, 1985)، كما يتجاوز أثر الألم البعد اللحظي ليطال استمرارية الهوية عبر الزمن، فالألم

المزمن أو المرض لا يغير الإحساس بالجسد فحسب، بل يعيد تشكيل السرد الذاتي للهوية، حيث تنقسم الحياة إلى ما قبل الألم وما بعده ويحذو الجسد في هذه الحالة موقعاً لذاكرة الألم، وحاملاً لتجربة تعيد تعريف الذات وحدودها وإمكاناتها. ومن هنا، لا تكون الهوية الجسدية مجرد حضور آني، بل تاريخاً معيشاً يتكون عبر التجربة، ويُعاد بناؤه باستمرار (عريف، 2024).

ويبرز التحليل الظاهراتي أيضاً البعد العلاقي للألم في تشكيل الهوية الجسدية، فالألم رغم طابعه الفردي وغير القابل للنقل الكامل، يكشف عن اعتماد الذات على الآخر، سواء في طلب الرعاية أو في الاعتراف بالمعاناة.

- الجسد بين الموضوع والذات

شكل الجسد عبر تاريخ الفلسفة إشكالية مزدوجة، إذ جرى النظر إليه تارة بوصفه موضوعاً مادياً خاضعاً لقوانين الطبيعة، وتارة أخرى بوصفه ذاتاً معيشة لا تنفصل عن الوعي والتجربة، وقد أدت هذه الازدواجية إلى انقسام نظري جاء بين التصورات التي اختزلت الجسد في بعده الفيزيائي، وتلك التي أعادت الاعتبار إلى الجسد باعتباره شرطاً للذات والوعي (عريف، 2024).

وفي التصورات الفلسفية الحديثة، ولاسيما في الفلسفة الديكارتية، تم التعامل مع الجسد بوصفه شيئاً "موضوعاً". أي كجسم ممتد يمكن دراسته علمياً ووصفه من الخارج، في مقابل الذات المفكرة التي تُعرف باعتبارها جوهرًا عقلياً مستغلاً (عريف، 2024)، وبهذا المعنى، أصبح الجسد موضوعاً للمعرفة، لا ذاتاً حاملة لها، وقد ترتب عن هذا التصور فصل حاد بين الجسد والذات، جعل الجسد أشبه بآلة أو سيط صامت. إلا أن هذا الفهم سرعان ما تعرض لنقد فلسفي عميق، خاصة في الفلسفات المعاصرة التي رأت أن اختزال الجسد في كونه موضوعاً يطمس بعداً أساسياً من التجربة الإنسانية، فالجسد ليس فقط ما تملكه، بل هو ما تكونه، ومن هنا برز مفهوم الجسد المعيش الذي يشير إلى الجسد كما يُعاش من الداخل، لا كما يُلاحظ من الخارج، فالجسد في التجربة الإنسانية، لا يُدرك ابتداءً بوصفه موضوعاً منفصلاً عن الذات، بل بوصفه نقطة التقاء الوعي بالعالم، ومن ثم فهو ليس شيئاً أزاء الذات، بل جزء لا يتجزأ من بنيتها "فلسفة الجسد"، فالجسد هو الوسيط الذي تتجسد من خلاله التجربة، وبدونه لا يمكن الحديث عن إدراك أو وعي أو هوية (عريف، 2024).

تؤكد الفلسفة الظاهراتية، كما نجدها عند ميرلو-بونتي، أن الجسد لا يمكن إدراجه فمن ثنائية الذات/الموضوع التقليدية، لأنه هو المجال الذي تتكون فيه هذه الثنائية ذاتها، فالجسد هو ذات من حيث إنه يعيش ويحس ويتألم، وهو موضوع من حيث إنه يرى ويلمس ويدرس. غير أن هذين البعدين لا ينفصلان في التجربة المعيشة، بل يتداخلان تداخلاً أصيلاً (أفلاطون، د.ت).

وعليه، يمكن القول إن الجسد يحتل موقعاً إشكالياً فريداً، فهو موضوع للمعرفة العلمية، وذات للتجربة المعيشة في آن واحد، وهذه الازدواجية ليست تناقضاً، بل شرطاً لفهم الإنسان بوصفه كائناً متجسداً، ويشكل هذا الفهم

أساساً فلسفياً ضرورياً لتحليل تجربة الألم، بوصفها اللحظة التي ينكشف فيها الجسد لا الموضوع الخارجي، بل كذات متألمة تعيد تشكيل علاقة الإنسان بنفسه، وبالعالم (مظهر، 2019).

- الجسد المعيش كأساس للهوية

الجسد المعيش يُعد من المفاهيم الفلسفة التي أسهمت في إعادة التفكير في مسألة الهوية الإنسانية من خلال تجاوز التصورات التي تفصل بين الذات والجسد أو تجعل الهوية شأنًا ذهنيًا خالصًا، فالجسد المعيش لا يُفهم بوصفه كيانًا ماديًا محايدًا، بل بوصفه بنية خبراتية تتشكل فيها الذات، وتبنى من خلالها علاقتها بنفسها وبالعالم والآخرين - ومن ثم، فإن الهوية لا تتأسس خارج الجسد، بل تتجذر في التجربة الجسدية المعيشة، ولا تبني الهوية الجسدية على أساس الامتلاك أو السيطرة على الجسد، بل على أساس العيش فيه ومن خلاله، فإن الجسد المعيش يشكل المجال الأول الذي تتكون فيه دلالة "الأنا" حيث لا تظهر الذات بوصفها وعيًا مجردًا، بل كذات متجسدة تحس، وتتحرك وتتألم وتفرح، بهذا المعنى، تصبح الهوية الجسدية نتيجة لتجربة معيشة سابقة على كل تعريف نظري أو تصنيف علمي (مظهر، 2019).

ومن هذا المنظور، لا يمكن الحديث عن هوية ثابتة أو مكتملة، لأن الجسد ذاته يعيش التحول والتغير عبر الزمن فالمرض، والألم، والنقد في السن، والتجارب الحدية، كلها أحداث تفيد تشكيل علاقة الذات بجسدها، وتحدث شرطاً أو إعادة بناء في الإحساس بالهوية، ويشير فتحي التريكي إلى أن الجسد المعيش هو موقع الصراع بين الاستمرارية والانقطاع في الهوية، إذا تضمن للذات وحدتها، وفي الوقت نفسه يعرضها للاهتزاز والقلق (مظهر، 2019).

وعلى ذلك؛ فإن الجسد المعيش لا يُعد عنصرًا ثانويًا في بناء الهوية، بل هو أساسها الوجودي، فالذات لا تعي نفسها إلا من خلال جسدها، ولا تحافظ على استمراريته إلا عبر الذاكرة الجسدية للتجربة، ومن هنا، يصبح تحليل الجسد المعيش مدخلًا ضروريًا لفهم كيف تُعاد صياغة الهوية في تجارب الألم والمعاناة، حيث يفقد الجسد شفافيته المعتادة، ويتحول إلى مركز وعي الذات بذاتها (مظهر، 2019).

المبحث الرابع: المقاربة الظاهرية لتجربة الألم:

تسعى المقاربة الظاهرية إلى فهم الظواهر الإنسانية كما تُعاش في الخبرة المباشرة، بعيدًا عن التفسيرات الاختزالية التي تحصرها في أبعادها الفيزيولوجية أو النفسية الصرفة، ومن هذا المنطلق، لا ينظر إلى الألم بوصفه مجرد إحساس جسدي ناتج عن منبه عصبي، بل بوصفه تجربة معيشة تتجلى داخل الوعي، وتكشف بنية العلاقة بين الذات وجسدها والعالم (ميرلوبونتي، 1995)، ويؤسس هوسرل لهذا الفهم حين يتميز بين الجسد بوصفه جسمًا ماديًا والجسد بوصفه جسدًا معيشًا، فالألم وفق التحليل الظاهراتي، لا يُعاش في الجسد كموضوع خارجي، بل في الجسد المعيش الذي يشكل مركز الإحساس والقصدية، ومن ثم، فإن تجربة الألم ليست حدثًا فيزيائيًا محضًا، بل فعل وعي قصدي، يتوجه فيه الوعي نحو ذاته بوصفها متألمة (ميرلوبونتي، 1995).

ويؤكد هوسرل أن الإحساس بالألم يحدث تحولاً في بنية الوعي الجسدي؛ إذ يفقد الجسد شفافيته المعتادة، ويتحول من وسيط صامت إلى موضوع حضور مكثف، فالألم لا يُضاف إلى الوعي من الخارج، بل ينبثق من داخل التجربة المعيشة، ويعيد تشكيل علاقة الذات بجسدها، وهو ما يمنح الألم بعداً معرفياً ووجودياً في آن واحد، ويطور ميرلو-بونتي هذا التحليل، معتبراً أن الألم يُعدّ مثلاً واضحاً على استحالة الفصل بين الجسد والذات، فالجسد عنده ليس شيئاً نملكه، بل هو أسلوب وجود في العالم، والألم بوصفه تجربة حدية يكشف هذا الأسلوب من خلال اختلاله، ففي لحظة الألم، لا ألاحظ جسدياً كما ألاحظ شيئاً خارجياً، بل أعيشه بوصفه ذاتاً متألمة وهو ما يجعل الألم تجربة غير قابلة للنقل الكامل إلى لغة موضوعية (ميرلوبونتي، 1995).

وعليه؛ تبيّن المقاربة الظاهرية أن الألم ليس حالة عرضية، بل تجربة فلسفية كاشفة، تُظهر الجسد بوصفه مركز الهوية والتجربة، فالألم يعيد الذات إلى جسدها، ويجعلها تعي هشاشته وحدوده، وفي الوقت نفسه يؤكد أن الهوية الجسدية لا تشكل إلا عبر ما يُعاش ولا تختبر، لا عبر ما يقاس أو يفسر علمياً فقط (ميرلوبونتي، 1995).

المبحث الخامس: الألم وإعادة تشكيل الهوية الجسدية:

لا يُعدّ الألم تجربة عابرة في حياة الإنسان، بل يمثل لحظة وجودية كاشفة تحدث خلخلة عميقة في علاقة الذات بجسدها، وتعيد تشكيل ما يمكن تسميته بالهوية الجسدية ففي التجربة اليومية العادية، يعيش الإنسان جسده في نوع من الشفافية؛ إذ يعمل الجسد كوسيط صامت بين الذات والعالم، غير أن الألم يكسر هذه الشفافية، ويجعل الجسد حاضراً، بوصفه مركزاً للمعاناة والوعي، مما يفرض على الذات إعادة التفكير في علاقتها بذاتها المتجددة (ميرلوبونتي، 1995)، لهذا فالجسد لا يظهر للوعي في أقصى حضوره إلا في لحظات الانكسار كالمرض أو الألم، حيث يتحول من أداة الوجود إلى موضوع مسائلة وجودية ففي هذه اللحظات، يُعاد بناء الإحساس بالذات، لأن الهوية لم تعد قائمة على الاستمرارية الهادئة، بل على تجربة تُعتبر ترتيب العلاقة بين الجسد والهوية، فالألم يجبر الذات على الاعتراف بحدود الجسد وهشاشته، وهو ما نتج وعياً جديداً بالذات المتجسدة، والهوية الجسدية وفق هذا التصور، لا تتأسس على القوة أو السيطرة، بل على تجربة المعاناة التي تكشف الإنسان لذاته في أضعف حالاته وهكذا، يتحول الألم إلى لحظة إعادة تأسيس للهوية، حيث تعيد الذات تعريف نفسها انطلاقاً من الجسد المتألم (ميرلوبونتي، 1995).

يمكن القول إن الألم لا يُدمر الهوية الجسدية بقدر ما يعيد تشكيلها، فهو يكشف للجسد أبعاده المنسية، ويخرج الهوية من وهم الثبات، ليدخلها في مسار دينامي يتأسس على التجربة والمعاناة والتأويل، ومن هنا يغدو الألم عنصراً فلسفياً حاسماً في فهم الهوية الجسدية، لا بوصفها مُعطى بيولوجياً أو نفسياً فحسب، بل بوصفها بناءً وجودياً يتشكل عبر ما يُعاش ويحتمل (عطية، 2006).

أولاً: من الشفافية إلى الانكشاف:

يُظهر التحليل الظاهراتي للجسد عند "مورويس ميرلوبونتي" أن الجسد ليس شيئاً نملكه، بل هو نمط وجودنا في العالم، نحن لا نلاحظ أجسادنا أثناء الفعل، بل نحيا من خلالها، غير أن الألم يعطل هذا الاندماج القصدي بين الذات والعالم، إذ يقطع حركة التوجه نحو الخارج ويعيد توجيه الوعي نحو الداخل في لحظة الألم، فينفصل العضو المؤلم عن وحدة التجربة، فيغدو مركزاً للانتباه القهري. وهنا يتحول ليس لغوياً فحسب، بل بنيوي؛ إذ يعيد ترتيب العقل القصدي للتجربة (عطية، 2006).

ثانياً: الألم كتصدع في الهوية الجسدية:

إذا كانت الهوية الجسدية تعني استمرارية علاقة الذات بجسدها بوصفه تعبيراً عن ذاتيتها، فإن الألم يشكل تصدعاً في هذه الاستمرارية، فالذات لا تعود تتماهى كلياً مع جسدها، بل تختبره أحياناً كشيء يحدث لها أو عليها، وهنا يمكن الاستفادة تحليلياً من التمييز بين الهوية بوصفها تماثلاً عددياً، والهوية بوصفها استمرارية معيارية، كما نوقشت في فلسفة الهوية الشخصية عند جون لوك، مع نقل الأشكال من مجال الوعي الخالص إلى مجال التجسد. فالألم يكشف أن استمرارية الجسد البيولوجية لا تكفي لضمان استمرارية الهوية الجسدية كما تُعاش (هوسرل، د.ت)، ولذلك فإنه في حالات الألم المزمن مثلاً، لا يكون التغير في المادة الجسدية جذرياً، لكن صورة الجسد في الوعي تتبدل فتشأ نوع من الاغتراب الجزئي: الجسد ذاته، لكنه لم يعد يُعاش بالطريقة نفسها، ومن هنا يتضح أن الهوية الجسدية ليست تطابقاً فيزيائياً، بل علاقة تأويلية مستمرة.

ثالثاً: الألم بوصفه إعادة تنظيم للبنية القصدية:

يمكن فهم الألم بوصفه إعادة تنظيم للبنية القصدية للتجربة، ففي الحالة السوية، يتوزع الانتباه بين العالم والأفعال والمشاريع، أما في حالة الألم، فإن الحقل القصدي ينكمش، ويصبح الجسد مركز الثقل الإدراكي، وهذا الانكماش لا يعني فقط تضيق الأفق، بل يؤدي إلى إعادة تعريف الذات من خلال حدودها، فالألم يذكر الذات بأنها كائن هش ومحدود، ويجعلها تعي جسدها كشرط إمكان وكموضع قابل للانكسار في آن واحد، وهنا يلتقي التحليل الظاهراتي مع البعد الأنطولوجي الذي ألمح إليه مارتين هيدغر في حديثه عن انكشاف الوجود عبر حالات الاختلال والقلق، فالتعطّل يكشف ما كان مستترًا في الاعتياد (Husserl, 1913).

يتناول هذا البحث الألم بوصفه حدثاً بنيوياً يعيد تنظيم علاقة الذات بجسدها، لا مجرد حالة حسية عابرة ينطلق التحليل من أن الجسد في الوضع الاعتيادي يحضر كوسيط شفاف للانخراط في العالم؛ غير أن الألم يخرق هذه الشفافية، فيحول الجسد إلى موضوع قهري للوعي، ويعيد توجيه البنية القصدية للتجربة نحو الداخل، وبهذا المعنى، يشكل الألم تصدعاً في الاستمرارية المعاشة للهوية الجسدية، إذ تنشأ فجوة بين التماثل البيولوجي للجسد وبين التماهي الوجودي معه (ميرلوبونتي، د.ت).

يبين هذا المبحث أن الهوية الجسدية ليست تطابقاً مادياً ثابتاً، بل علاقة تأويلية ديناميكية، ففي حالات الألم المزمّن لا يتغير الجسد من حيث مادته بقدر ما يتغير صورته في الوعي، مما يكشف أن معيار الهوية الجسدية يقوم على الاستمرارية الفيزيائية وحدها، ومع ذلك لا ينتهي الألم إلى تفكك الهوية بالضرورة؛ إذ يمكن أن يفتح أفقاً لإعادة تعريف الذات ضمن حدودها الجديدة (Merleau-ponty, 2012)، وبالتالي يمثل الألم لحظة كشف وتحول في آن واحد: يكشف هشاشة الهوية الجسدية، لكنه في الوقت ذاته يبرهن على قابليتها لإعادة التشكل، مؤكداً أن الجسد ليس موضوع امتلاك، بل آفق وجود يتحدد ويتجدد عبر التجربة الحدية.

الخاتمة

لقد سعى هذا البحث إلى تقديم دراسة شاملة للألم بوصفه تجربة معاشة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالهوية الجسدية، مستنداً إلى المنهج الفلسفي الظاهراتي وتحليلاته الدقيقة للجسد والوعي والزمن والعالم، وقد أتخذ البحث مساراً تاريخياً وتحليلياً يبدأ بالمفهوم الكلاسيكي للألم في الفلسفة اليونانية، مروراً بالتحوّلات الحديثة، وانتهاءً بالتحليل الظاهراتي المعاصر، بهدف تقديم رؤية متكاملة تكشف عن الطبيعة المزدوجة للألم تجربة حسية ووجودية في الوقت ذاته (Fuchs, 2012).

خلص هذا البحث إلى أن الألم لا يمكن اختزاله في كونه إحساساً فيزيولوجياً عابراً، بل هو تجربة جسدية وجودية مركبة تكشف عن عمق العلاقة بين الذات وجسدها.

فمن خلال المقاربة الظاهراتية التحليلية، تبين أن الألم يحدث قطيعة مع الجسد بوصفه وسيطاً شفافاً للوعي ليغدو الجسد في لحظة المعاناة مركزاً للحضور والانكشاف، وموضعاً لإعادة التفكير في معنى الهوية الجسدية.

وقد أظهر البحث أن الهوية الجسدية ليست معطى ثابتاً أو بنية مكتملة سلفاً، بل تتشكل ويُعاد صياغتها في ضوء الخبرات الجسدية القصوى، وفي مقدمتها تجربة الألم، فالألم يضع الذات في المواجهة مباشرة مع جسدها، ويكشف هشاشته وحدوده، وفي الوقت ذاته يضفي عليه بعداً دلاليّاً جديداً يجعله عنصراً فاعلاً في بناء المعنى والوعي بالذات.

كما بين البحث أن المنهج الظاهراتي يُعد الإطار الفلسفي الأكثر ملاءمة لفهم تجربة الألم، لكونه ينطلق من الخبرة المعاشة ويعلق التفسيرات الاختزالية، مما يسمح بالكشف عن البنية القصدية للألم ودلالات الوجودية، ومن خلال تحليل المفاهيم الأساسية مثل الجسد المعيش، والقصدية، والمعاناة أمكن إبراز كيف يتحول الألم إلى تجربة كاشفة تفيد تشكيل العلاقة بين الذات والعالم (علام، 2020).

نخلص مما سبق إلى جملة من النتائج، نوجزها فيما يلي:

1. أظهر البحث أن الألم لا يمكن اختزاله في كونه إحساساً فيزيولوجياً أو حالة فرضية، بل هو تجربة معاشة مركبة تمس بنية الوعي والجسد والزمن والعلاقة بالعالم، مما يجعله ظاهرة فلسفية مركزية لفهم الوجود الإنساني المتجسد.
2. يُبين التحليل التاريخي أن المقاربات الكلاسيكية والحديثة للألم، رغم اختلافها، قد اشتركت في التعامل معه إما بوصفه انفعالاً يجب تجاوزه أو آلية جسدية يجب تفسيرها، وهو ما أدى إلى تهميش أبعاده الذاتية والوجودية.
3. أثبت المنهج الظاهراتي، خاصة في أعمال هوسرل وميرلو-بونتي، قدرته على استعادة الألم بوصفه تجربة جسدية معيشة، تكشف عن الطابع المتجسد للذات، وعن كون الجسد ليس موضوعاً محايداً، بل شرطاً لتكون الهوية.
4. توصل البحث إلى أن الألم يشكل لحظة مفصلية في إعادة تشكيل الهوية الجسدية، إذ يكسر شفافية الجسد، ويجبر الذات على إعادة التفكير في حدودها، وقدراتها وسردها الذاتي عبر الزمن.
5. أبرز البحث أن تجربة الألم لا تقتصر على بعدها الفردي، بل تتفتح على بعد علائقي وأخلاقي، حيث يكشف الجسد المتألم عن قابلية الذات للتعرض والاعتماد على الآخر، مما يمنح الألم بعداً يتجاوز الخصوصية إلى المسؤولية والاعتراف.

توصيات البحث

1. يوصي البحث بضرورة إدماج المقاربة الظاهراتية للألم في الدراسة الفلسفية المعاصرة؛ بوصفها مدخلاً لفهم العلاقة بين الجسد والهوية بعيداً عن الاختزالات العلمية أو النفسية.
2. إجراء دراسات مقارنة بين الفلسفة الظاهراتية ومقاربات فلسفية أخرى (التحليلية أو التأويلية) لفهم الألم، بهدف إثراء النقاش الفلسفي وتوسيع آفاق التحليل.
3. تعزيز الدراسات التي تربط بين الهوية الجسدية والتجربة المعاشة للألم، باعتبار أن الألم يكشف البنية العميقة للوعي الجسدي ويزعزع وهم الشفافية الجسدية.
4. توسيع الحوار بين الفلسفة الظاهراتية والتحليل الفلسفي المعاصر لفهم البعد اللغوي والتعبيري للألم، خاصة إشكالية قابلية الألم للوصف والتواصل.
5. إعادة النظر في ثنائية الجسد/ الذات، حيث يظهر الألم بوصفه لحظة انهيار هذه الثنائية، ويكشف عن وحدة الجسد - الذات كوحدة معيشة لا كمجرد تركيب ميتافيزيقي.
6. تضمين البعد الفلسفي في دراسات الألم نظراً لما يحدثه من إعادة تشكيل مستمر للهوية الشخصية والزمن المعاش.
7. إجراء دراسات مقارنة بين تصورات الألم في الفلسفة الغربية والفكر العربي الإسلامي، لرصد أوجه الالتقاء والاختلاف في فهم العلاقة بين الألم والهوية.

قائمة المصادر والمراجع

1. أفلاطون، فيدون، (2008)، ترجمة: عزت خريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. إبراهيم، زكريا (1969)، المشكلة الخلفية، مشكلات فلسفية، العدد 6، مكتبة مصر، القاهرة.
3. إيفيناس، إ (د.ت)، الكلية واللامتناهي، فتحي المسيكني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.
4. بنعبد العالي، ع (2007)، الجسد والاختلاف، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
5. التريكي، ف (د.ت)، فلسفة الجسد والحدثة، تونس، دار محمد علي.
6. التهانوي، محمد علي (د.ت)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مادة: الألم: دار الكتب العلمية، بيروت.
7. الحفني، عبد المنعم، (1990)، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، ط1، القاهرة.
8. ادموند، هوسرل (2008)، أفكار من أجل ظاهرة خالصة وفلسفة ظاهراتية "إسماعيل المصدق"،
9. الديوني، أ (2023)، الفلسفة والألم، دار المتوسط، تونس.
10. ديكارت، رينيه (1962)، التأملات في الفلسفة الأولى، كمال الحاج، دار الطليعة.
11. ديكارت، رينيه (ب.ت)، مقال عن الإنسان، عبدالرحمن بدوي، دار العلم للملايين.
12. عبدالرحمن، ط، (د.ت)، سؤال الأخلاق، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
13. عريف، أسماء (2024)، فينومينولوجيا الألم من منظور فلسفي، دراسة تحليلية نقدية، مجلة كلية الآداب،
بوادي الجديد، ديسمبر.
14. عطية أحمد عبدالحليم (2006)، فلسفة الجسد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
15. صليبا، جميل (1982)، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ج1، بيروت.
16. صادق، ع، (2005)، الألم النفسي، جامعة عين شمس، مصر.
17. مظهر، أ، (2019)، فلسفة اللذة والألم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1. المنظمة العربية للترجمة،
بيروت.
18. لوبروتون، دافيد (د.ت)، تجربة الألم "ترجمة عربية"، القاهرة: المركز العربي للترجمة.
19. مراد، س (1992)، السعادة عند الفلاسفة الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
20. محمد بن سباع. (د.ت)، تحولات الفسيولوجية المعاصرة، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات.
21. محمد علام (2020) فينومينولوجيا الجسد الحي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد 9، العدد 2،
جامعة وهران.
22. مذكور، إبراهيم (1985)، المعجم الوسيط، ج1، مجمع اللغة العربية، ط3، القاهرة.
23. مظهر، إسماعيل (2019)، فلسفة اللغة والألم، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
24. موسى، ح (2006)، الجسد واللغة، الجزائر، منشورات الاختلاف.
25. ميرلوبونتي، موريس (1995)، تفريظ الحكمة، ترجمة محمد محبوب، دار أمية.

26. ميرلو-بونتي، (2010)، فينومينولوجيا الإدراك، مصطفى صفوان، دار التريار 2.
27. موريس ميرلوبونتي (1945)، ظاهراتية الإدراك، ترجمة: فؤاد شاهين، المركز الثقافي العربي.
28. هوسرل، إدموند، أفكار من أجل ظاهراتية خالصة وفلسفة ظاهراتية، ترجمة إسماعيل المصدق، المنظمة، دار النهار العربية للترجمة.
29. هوسرل إدموند (1913)، أفكار تمهيدية للظاهراتية، الخالصة.
30. هوسرل، (د.ت)، التأملات الديكارتية "نادر كاظم"، المركز الثقافي العربي، بيروت.
31. Ricoeur, paul, oneself as Another Traus. Kathleen Blamey. chicago:university of chicago press, 1992.
32. Husserl. (1913) Ideas pertaining to a pure phenomenology and to a phenomenological philosophy (Idea's).
33. Levinas, E. (1992), Time and the other puguesue Univesity Press.
34. Maurice Merleau-pouty (2012). Phenom enology of perception. pain and temporaliiy: a Merleau - pontyian approach .
- 25- Abdulghani.N, Ayad.N , Masoud.M , Barkah.S , Aladi.S , Abouzied.A,(2025), Tazkiya al-Nafs and Moral Education in Libyan Universities. Volume 3, Number 1.
<https://doi.org/10.65190/cigarskruie.v3i1.464>.